[أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦]

هذه الآيات استعراض مدهش لعجيب صُنع الله، وبديع خلقه في الآفاق، مما تخضع له الرقاب، وتخر له الجباه، ويملك هؤلاء المخاطبون إنكاره.

* فالاستفهام في قول الله تعالى: [أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا]، استفهام تقريري؛ لأنهم مُقرون بما فيه.

فابتدأ الله ﷻ بالآيات الأرضية، ثم ثنّى بالسماوية، فقال أولاً: [أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا] ، فهذه الأرض التي تدبّون عليها، وتمشون في أكنافها، وتسيرون في مناكبها، وتحرثونها وتزرعونها؛ ألم نجعلها لكم مهاداً ؟.

ومعنى [مِهَٰدٗا] أي: ممهدة مفروشة. فهم يمتهدونها، ويفترشونها، كما قال ﷻ في الآية الأخرى: [أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١] [النمل: ٦١].

فالله ﷻ بسط لنا هذه البسيطة، بحيث نطمئنُّ في السير عليها، وفي السُّكنى فوقها، وفي الحرث، والزرع فيها؛ فهي آية قريبة جداً، نلامسها كل حين. وجواب هذا الاستفهام: (بلى)؛ لأنه قد صُدِّر بالهمزة في قوله: [أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا].

* ثم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾

انتقل إلى مظهر آخر من مظاهر آياته الأرضية، وهي هذه الجبال الراسيات، التي جعلها الله ﷻ بمنزلة الأوتاد، كالأطناب للخيمة، فالخيمة لا تثبت، إلا إذا دُقّت أوتادها في الأرض، فكذلك هذه الأرض، لا تستقرُّ إلا بهذه الجبال قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١﴾ [الأنبياء: ٣١].

والجبل على هيئة الوتد؛ جزء منه بارزٌ على وجه الأرض، وجزء غائر فيها. فدل ذلك على أن هذه الجبال المنظورة، لها في جوف الأرض عُمْق وامتداد. وسبب تسميتها أوتاداً؛ لأنها تمنع الأرض من الحركة، والاضطراب، والتزلزل، إلا ما شاء الله. فالله ﷻ بحكمته البالغة، قد وزّع الأثقال في الأرض، بحيث تمنعها من أن تميد وتضطرب.

كما أن هذه الأوتاد، والكتل الضخمة من الجبال التي إذا رأى الإنسان بعضها، يندهش من هولها، وعظمتها، لها ما يقابلها في أغوار البحار. بمعنى أن الله ﷻ كما جعل هذه المرتفعات الشاهقة فوق الأرض، قابل ذلك بخلق البحار والأودية، والأغوار.

والله ﷻ يذكر الأرض، والسماء، والجبال، مقترنةً، في غير ما موضع في كتابه؛ منها قوله ﷿: قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وسيأتي إن شاء الله في سورة (سبح)، ذكر هذا الاقتران.

* ثم قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ ﴾

وهذه نقلة من الآفاق إلى الأنفس. وكلها آيات لله ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ المراد بالزوجية: الذكورة، والأنوثة. فإن الله ﷻ قد ركّب نظام الخلق، وجعل سِرَّ التكاثر، على هذه الزوجية. وهذا ليس عند بني الإنسان فقط، بل حتى عند الحيوانات، والحشرات، والنباتات، وغيرها من المخلوقات. فالتزاوج يحصل به التناسل، والتكاثر، وحفظ النوع. وهو آية عظيمة، فالله ﷻ خلقنا من نفس واحدة؛ وهو آدم .

ثم إن الله خلق من ضِلعِه الأيسر أُمّنا "حواء"، فنام آدم نومة في الجنة، فاستيقظ فإذا هي إلى جواره، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ

أَعْلَاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ" متفق عليه [1]، واليوم يعمر الأرض من الآدميين، ما يزيد على ستة مليارات من البشر، مُختلفو الأجناس، والأعراق، والألوان، واللغات، كلهم يرجعون إلى أب واحد، وأمٍّ واحدة. فهذه آية عظيمة! وإذا تفكر الإنسان في خلق الرجل، وخلق المرأة، وكيف جعل الله ﷻ أحدهما يُكمل الآخر رأى عجباً!؛ لما فتح الله ﷻ على الناس العلوم الحديثة والبحوث المَخْبرية ؛ زاد إيمان المؤمن ببديع صنع الله؛ فهذا التزاوج ينشأ عن التقاء حيوان منويٍّ من الذكر، وبُويضة من الأنثى. وهاتان الخليّتان تختلفان عن سائر الخلايا، فكل خليّة من خلايا البدن، كما يقول المتخصصون في علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجي)، تحمل ستة وأربعين مُورِّثاً، أو (جيناً)، المُسمى عندهم بـ (الكروموسومات)، إلا الخليّة التناسلية، فإن في الحيوان المنوي ثلاثة وعشرين، وفي البويضة ثلاثة وعشرين. فإذا حصل التلقيح، والإخصاب، بإذن الله، انضم هذا من الرجل، وهذا من الأنثى، فحصل التلقيح. كما أن هذا التزاوج، ليس تزاوجاً حسياً فقط، بل تزاوج نفسي أيضاً؛ فإن الذكر يأنس بالأنثى، والأنثى تأنس بالذكر. ولهذا امتن الله ﷻ على عباده بذلك، وجعل ذلك من آياته، فقال في الآية الأخرى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، فهذا جانب روحي، وليس جانباً مادياً، ولا يستغني عنه الإنسان.

* ثم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ ﴾

هذا مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، والآيات العظيمة في النفس، وهو هذا النوم الذي يُلقيه الله ﷻ على أحدنا، فيدخل في حالة ليست كحالة اليقظة، وليست أيضاً كحالة الموت، بل هي حالة وسيطة، لاغنى للإنسان عنها. وقد وصفها الله ﷻ بأنها: سُبات.

وأحسن ما قيل في تعريف السُبات: أنه الرَّاحة، والسَكْن. وقيل غير ذلك؛ فقيل: إن معنى سُباتاً أي: موتاً. وقيل: قطْعاً للحركة.

وهذه المعاني تؤول في النهاية إلى هذه المِنّة؛ وهي أنه يحصُل بهذا النوم الراحة، والسَكْن. ولو استرسل الإنسان في اليقظة لأضرّ به ذلك في بدنه؛ فالبدن يحتاج إلى راحة، ولأضرّ به في نفسه؛ لأن

[1] صحيح البخاري (٣٣٣١)، وصحيح مسلم (١٤٨٦).

النفس تُنهك، وتُرهق، ولأضرّ به في عقله؛ فإن العقل لا يُطيق إدمان التفكير، فلذلك ألقى الله ﷻ علينا هذا النوم، وحتى لو لم نستدْعه، لاضطررنا إليه، وغلبنا.

و عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ "إِنَّ اللَّهَ ﷻ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِى رِوَايَةِ أَبِى بَكْرٍ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ"رواه مسلم[2]. فسبحانه تعالى وبحمده، هو الحي، القيوم، الغني بنفسه. أما الآدمي، فإنه ضعيف بطبعه يحتاج إلى النوم. والنوم في حق الله نقص، يُنزه عنه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[البقرة:٢٥٥]، لكن النوم في حق الآدمي كمال، ونفع، وحاجه وهو آية من آيات الله، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾[الروم: ٢٣]

والنوم أخو الموت كما قال النبي ﷺ[3]، لكنه أخوه الأصغر؛ لأنه دون ذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزمر:٤٢] وأنت إذا أويت إلى فراشك تقول: (بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ) متفق عليه[4] .

إن علاقة الروح بالبدن، ليست علاقة متساوية، ولكن بين الروح والبدن أنواع خمسة من التعلقات نُدركها بالتتبع والاستقراء:

---

(١) صحيح مسلم (١٧٩).

(٣) صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٨٢/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣١/٧) ، من طريق محمد بن المنكدر عن جابر ا قال: سأل رجل رسول الله أينام أهل الجنة؟ فقال: (النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (رواه الطبراني في الأوسط والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح)، وقال الشيخ الألباني: (وبالجملة فالحديث صحيح من بعض طرقه عن جابر) راجع (الصحيحة) رقم (١٠٨٧).

(٤) صحيح البخاري (٦٣٢٠)؛ صحيح مسلم (٢٧١٤).

النوع الأول: **علاقة الروح بالبدن في المرحلة الجنينية**: وهى علاقة ضعيفة، إلى حد أننا لا نذكر هذا التعلق، مع أننا نقطع بأن الجنين بعد أربعة أشهر تنفخ فيه الروح، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ..."متفق عليه [٥]، ولكن ما منا أحد يذكر ذلك الحال؛ من وجود روحه في بدنه.

النوع الثاني: **تعلق الروح بالبدن في حال اليقظة، في الدنيا**: ولا نحتاج إلى وصفه، لأننا نعيشه.

النوع الثالث: **تعلق الروح بالبدن في حال النوم في الدنيا**: فإنها حال مستقلة، لا تُغادر الروح الجسد مغادرة تامة، بل لها فيه نوع تعلق. ولذلك نجد أن النائم أحياناً يظهر عليه التبرم، بسبب الحرّ ، أو بسبب الإزعاج، مع أنه ليس في وعيه، ويظهر عليه أثر البرد، فيقشعر بدنه، ويظهر عليه أثر الراحة والاستغراق؛ فيسترخي .

النوع الرابع: **تعلق الروح بالبدن في الحياة البرزخية**: وهذه حالة عجيبة، لا نُدركها الآن، ولكن الإيمان بالغيب يقتضي أن نؤمن بها؛ فإن روح الميت تُردُّ إلى بدنه، حين يُوضع في قبره، فيأتيه الملكان، فيسألانه الأسئلة الثلاثة المعظيمة، ثم يعقبها نعيم أو عذاب. فعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: "الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ،- قال: النَّبِيُّ ﷺ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا - وَأَمَّا الْكَافِرُ ، أَوِ الْمُنَافِقُ - فَيَقُولُ لاَ أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ ، وَلاَ تَلَيْتَ ثَمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ" متفق عليه[٦]، وهذه حال لا يُدركها إلا المقبور؛ فهو الذي يُحسُّ بنعيم القبر، أو عذابه.

---

(٥) صحيح البخاري (٣٢٠٨)، صحيح مسلم (٢٦٤٣).

(٦) صحيح البخاري (١٣٣٨)، صحيح مسلم (٢٨٧٠).

النوع الخامس: وهو أكمل أنواع التعلقات، **تعلق الروح بالبدن بعد البعث، إما في الجنة، أو في النار**: فهذا التعلق تعلق وثيق، واتصال عميق. ولهذا يجد المؤمن غاية النعيم في الجنة، ويجد الكافر غاية العذاب في النار، لشدة التصاق روحه ببدنه.

* ثم قال الله ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ ﴾

لقد جعل الله ﷻ هذه الحياة تتراوح بين ليل ونهار، بين ظلمة وإسفار. وما أحسن هذا التعقيب بعد ذكر النوم، فقد ذكر الله ـ محَلّه، وظرفه، وهو الليل. فما أن تسقط الشمس في المغيب، حتى يُقبل جيش الليل؛ يأتي هذا الجُند الظلامي، ويُغطي الأرض، ويُكنّها، ويَغشاها، كأنه لباس! أرأيت لو أخذتَ ثوباً أسود، وغشّيْتَ به إنساناً، فإنه لا يُبصر شيئاً؛ فهذا اللباس الليلي يَكسو الله به الأرض، كل يوم، ويحصل من جَرّائه هدوء، وسكينة، وآثار حميدة، قد لا نُدرك جميعها. ولهذا امتن الله على عباده فقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص:٧١].

فالله ﷻ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾[الزمر:٥]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس: ٤٠]، ولو اختل هذا الميزان، لظهرأثر ذلك على الآدميين، وآختلت مصالحهم.

حدثني بعض الناس، ممن عاش في منطقة قريبة من الدائرة القطبية في شمال إحدى الدول الاسكندنافية، قال: "عملتُ في بلد لا نرى فيه الشمس ستة أشهر، تأتي دقائق معدودة، ويرتفع قرص الشمس، ثم يسقط مباشرة، فنعيش في ظلام دامس، إلا ما يحصل بالإضاءة الكهربائية، حتى إن أحدنا يستيقظ من النوم، ويُبصر ساعته، فيجد الساعة مثلاً، السادسة ، فيسأل من حوله: الساعة السادسة، صباحاً أو مساءاً؟ لا يدري؛ لأن الزمن كله ليل! قال: إن حياة الناس في تلك البلدة، وهو ليس من أهلها، حياة كئيبة، يُحس الإنسان فيها بالانقباض، والتجهم في وجوه الناس".

إن من نعمة الله ﷻ، على هذه البلاد، التي أنزل فيها القرآن، وجعلها مهبطاً للرسالة، و منطلقاً للدعوة، أن جعلها بلاداً متوسطة، تتعاقب فيها الفصول، ويتعاقب فيها الليل والنهار، يَزيدان ويَنقصان، فهي سُرّةُ العالم، وقلب الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾، معنى معاشاً أي: تتعيّشون فيه، وتطلبون فيه رزقكم؛ تحرثون، وتتّجرون، وتعملون، لأن هذه الإضاءة الطبيعية الواسعة تمكننا من ذلك، ولو اجتمع كل من بأقطار الأرض على أن يُضيئوا الدنيا بما عندهم من آلات، ومولدات، لم يبلغوا نزرا يسيراً من هذا الضوء الذي يجلبه الله - لنا في النهار.

وبعد ذكر هذه الأحوال البشرية الأرضية، نقلنا نقلة عُلوية

* فقال تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾

فإذا البصر يشهق إلى أعلى، ليتأمل في هذا البناء المُحكم المتين، وهو السموات. فالسماء مبنية، كما أخبر الله ﷻ: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فهي سقف حقيقي، وعبّر في موضع آخر عن السموات بأنها سبع طرائق، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]، ففوقنا سبع سموات.

ومعنى ﴿ شِدَادًا ﴾ أي: متينة، محكمة، متماسكة، كما قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك: ٣]، أي: من ثقوب، وصدوع. ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ ﴾ [الملك: ٣] حاول مرة ثانية، وثالثة، ﴿ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٤]، حسر البصر أن يجد ثُقباً واحداً، في هذا البناء المُحكم.

وهذه السموات السبع، لا ندرك كيفيتها، هل المقصود بها ما يشير إليه علماء الفلك، أنها المجرّات، ويقولون: إن كل مجرة يتبعها قريب من مئة مليون نجم، وهذه النجوم أكبر من الشمس بآلاف المرات، أم أنها غير ذلك؟ الله أعلم. لكننا نؤمن بوجود سبع سموات، وأن المباشر لنا منها هي السماء الدنيا.

والبناء يدل على وجود نظام يحكمها، بحيث لا يَحيد جُرم سماوي عن مجراه قِيد أَنْمُلة، هذا هو الشد والإحكام والإتقان في بنائها.

ثم لمّا ذكر الله ﷻ السماء، ذكر بعض آياتها، بل ذكر أعظمها بالنسبة لما تُدركه أبصارنا، وهي: الشمس. ووصفها بهذا الوصف الجميل المُعبّر:

* ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ ﴾

فإن السراج يجمع وصفين: الإضاءة، والحرارة. فهو مَجلبة للنور ومَجلبة للدفء. وزاد ذلك بأن قال: ﴿ وَهَّاجًا ﴾ فهو يَتوهج ويتَّقِد.

شتان بين الشمس والقمر؛ فالقمر كوكب ذو جُرم بارد، كالمرآة، يعكس نور الشمس. فلذلك لا نجد من القمر دفئاً، وإن كُنّا نجدُ منه نوراً، لكنه دون إضاءة الشمس. أما الشمس فإنها تتوهج، وتبعث بالحرارة، ويترتب على ذلك، أي: الحرارة والإضاءة، أمور حيوية كثيرة جداً، تتعلق بصحة الإنسان، وبنمو النبات، وغير ذلك مما نُدركه، وما لا نُدركه. ولا ريب أن العلوم الحديثة؛ من علوم الفلك، وعلوم الأحياء، وعلوم وظائف الأعضاء، كشفت آفاقاً واسعة في هذا المقام، لكن القَدْر الذي بيّنه الله لعباده كافٍ في إقامة الحجة، فإن الناس يُدركون ذلك، وهم يَتنعمون بضوء الشمس ودفئها، وبرؤية أثرها على النبات، والحيوان.

* ثم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ ﴾

و﴿ ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾ قيل فيها عدة أقوال: قيل إن المراد بها: السحاب. وقيل: الرياح. وقيل: السماء. وأقربها الأول.

فهذه السُّحب التي تسافر إلينا من أماكن بعيدة، نشأت عن تسليط الله لضوء الشمس، ووهجها، على المسطحات الهائلة من المحيطات، فتتبخر كميات هائلة من مياه البحار، وترقى في طبقات السماء، ثم تتكثف، وينضم بعضها إلى بعض، ثم يُرسل الله الرياح كالقاطرات تَقْطرها، وتحملها إلى بلد ميت، إلى أرض قاحلة، كالمناطق القارّيّة، البعيدة عن مصادر المياه. يَسوقها الله ﷻ، بهذه الرياح، حتى يُوقفها على المكان الذي أراد أن تُنزل فيه حمولتها، فحينئذ تُعتصر، فتُنزل عُصارتها

في هذا المكان الميت، فيُحيي الله بهذا الماء أرضاً ميتة. ولو اجتمع مَنْ بأقطار الأرض، على أن ينقلوا عُشْر مِعشار هذا الماء لم يتمكنوا.

وقوله تعالى: ﴿ مَآءً ﴾ هو ماء مطلق، ماء نقي، ماء طهور.

ومعنى ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ أي: غزيراً، كثيراً. فسبحان من حمل هذه الأطنان من المياه، بين السماء والأرض، ثم صبها حيث شاء.

وعلى القول الآخر، بأن المراد بـ ﴿ ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾: الرياح. نجعل ﴿ مِنَ ﴾ بمعنى (الباء)، فكأن التقدير: وأنزلنا بالرياح ماءاً ثجاجاً. لأن الرياح هي التي تسوق السحاب، لكن القول الأول أولى. وأما من فسرها بالسماء، فإشارة إلى عُلوّها، وكلُّ ما علاك فهو سماء لك.

وهذا السَّوْق لحكمة كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ فتبارك الله، أرض قاحلة غبراء، لا ترى فيها أثراً لحياة، يُصب عليها ماء السماء، فإذا بها تُنبت أزاهير، وحُبوباً، وثماراً، وفواكه! فمن أودع الأرض هذه البذور وأنبتها؟ إنه الله سبحانه وتعالى.

* وقوله تَعَالَىٰ: ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ ﴾

الحَبُّ: اسم جنس يشمل كل ما يخطر ببالك من أنواع الحبوب؛ من بُر، وشعير، وأرز، وغير ذلك. وكذلك النبات: يشمل كل نبات مما يأكله الآدمي، وتأكله الحيوانات. وكل هذا من جَرّاء سَوْق الله لهذه المعصرات إلى هذه الأرض.

* وقوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾

الجنات هي: البساتين. وسُميت جنات؛ لأنها تُجِنُّ صاحبها، أي: تستره. ولهذا قال: ﴿ أَلْفَافًا ﴾ أي: ملتفة، والملتف فيها أغصان الأشجار، فإنها لكثرتها، التفَّ بعضها على بعض، كل ذلك من آثار ماء السماء، الذي سقى الله ـ به هذه الأرض، فإذا بها تتحول إلى حديقة غَنَّاء، تَصدح فيها الطيور، وترعى فيها السائمة، ويأكل منها الإنسان.

أرأيتَ هذه السلسلة المتلاحقة من الآيات الكونية العظيمة، كيف تُلامس شِغاف القلب؟

ثم ألا تعجب مِن أن هذه المظاهر تُقابلُنا صباح مساء، صيفاً وشتاءً، ثم لا ننتبه لهذه المعاني العظيمة التي أودعها الله ـ فيها!

ثم تأمل ثالثاً، في هؤلاء المخاطبين، من كفار قريش، الذين يُنكرون البعث، ويُنكرون القرآن، ويُنكرون الرسالة، ويُنكرون توحيد الله بالعبادة، كيف أن الله أيقظهم، ونبّههم، وحَرّك عقولهم البليدة، فهم يرون ذلك دوماً، ويعرفونه، لكنها معرفة باردة؛ لأنها مناظر مُتكررة، رتيبة، لا تُحدث في نفوسهم الأثر المطلوب، فما أشبههم بإنسان ساهٍ، غافل، أتاه مَن أتاه، فأمسكه من منكبيه، وهزّه، وقال له: انتبه، انظر، تَبصّر، تَفكّر، اعتبر، أين أنت؟ فقام مَشدوهاً لِيَنظر، لكن كما قال الله ﷻ: [قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١)] {يونس:١٠١} وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، فالآيات موجودة، ومبثوثة، ولكن لا ينتفع بها إلا أهل الإيمان، فلأجل ذلك ساق ـ هذه الآيات المتتابعة، لإخراج هؤلاء من غفلتهم، وسدرتهم، لِيصل بهم إلى النتيجة المنطقية؛ وهي: إذا كنتم تُقرون من أول وهلة، ومن أول سؤال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ فتقولون بلى، بلى، بلى، في عشر آيات متلاحقة، بأن هو الذي صنع ذلك، فمن المستحق للعبادة إذاً؟ أهو الذي صنع ذلك أم غيره ممن لم يصنع شيئاً؟ لا شك أن المستحق للعبادة هو من صنع ذلك. ولهذا لمّا أبطل الله ﷻ اتخاذ المشركين قال آلهة، بنفي ذلك عنها فقال: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣]، فلا مُسوِّغ لعبادتهم إذاً!. وقال إبراهيم ﷺ لأبيه: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤٢]، فلا يستحق العبادة من لم يكن متصفاً بصفات الكمال.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: أن توحيد الربوبية أساس توحيد الألوهية .

الفائدة الثانية: العناية ببيان أدلة الربوبية، وشواهدها في النفس، والآفاق. وبعض الناس يَطيش عنده الميزان، فيقلل من شأن الحديث في توحيد الربوبية، وربما قال : هذا توحيد أبي جهل! لمّا رأى أن المهم هو توحيد العبادة، ظنَّ أن ذلك يقتضي الغض من توحيد الربوبية ! والحق أن توحيد الربوبية

هو الأساس الذي يبنى عليه توحيد العبادة. وتأمل قول الله في سورة البقرة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، فطالبهم بالعبادة مُحتجاً عليهم بأنه خلقهم، والذين من قبلهم، ثم قال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٢]، فابتدأ بالأمر بالعبادة، وختم بالنهي عن الشرك، و ذكر بينهما دلائل الربوبية.

الفائدة الثالثة: إيقاظ العقول البليدة، للتفكر في المشاهد المتكررة: فكما وُوجه به المشركون، فينبغي أن نعظ أنفسنا به، وألا تتحول هذه المشاهد حولنا إلى جُثث هامدة.

الفائدة الرابعة: الاستدلال بالسهل المشاهد، قبل الصعب الخفي: فهذه الآيات المبثوثة في الكون سهلة، مشاهدة، لا نحتاج إلى محاضرات لإقامة الدليل عليها، بل يُدركها الكبير، والصغير، والعالم، والجاهل، والحضري، والبدوي، وكل أطباق الناس. فلا محوج لبناء العقيدة، على الطرق الكلامية، والأدلة الفلسفية الغامضة.

الفائدة الخامسة: استعمال أسلوب الاستفهام، والتنويع، والتكثير في الأدلة: فأسلوب الاستفهام كما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴾، و أسلوب التنويع: فالله لم يقتصر على نوع واحد؛ لأن القلوب لها مفاتيح، فقد يتأثر الإنسان بمعنى من المعاني، أو مشهد من المشاهد، ويتأثر غيره بغيره، لأسباب وزّعها الله على بني آدم. وأسلوب التكثير في الأدلة؛ لأن توالي الأدلة، وكثرتها تؤثر في النفس، كتتابع الطّرْق، ومن أدمن الطّرْق أوشك أن يُفتح له. فكل هذه الأساليب التربوية، الإيمانية، ينبغي أن يستفيد منها الداعية إلى الله في إقناع غيره، وفي التأثير، والموعظة.